© ٢٠١٥ مركز بحوث القرآن
جامعة ملايا، ماليزيا

قرآنيكا، مجلة عالمية لبحوث القرآن
عدد خاص (٧-أ)، أبريل ٢٠١٥م، ص١-٢٧

الأثر الدلالي لتنوع المصوتات في القراءات القرآنية(*)

د. دريد عبد الجليل الشاروط[١]

ملخص

من المتعارف أن الكلام في اللغة العربية يقوم على أساس مكانفة المصوتات للصوامت، وفق جملة من القواعد تتراوح بين الصوتية والصرفية والنحوية واللهجية، لذلك لم تلتزم مفردات اللغة بصورة بنائية ثابتة، إذ ما تزال تخضع مصوتاتها أو صوامتها إلى تأثيرات أدائية عدة تفرضها طبيعة السياق وقواعده، أو بيئة المتكلم وعاداته اللهجية الخاصة، أو مقدار فصاحته وسلامة لسانه. وقد حظي ميدان المصوتات بالنصيب الأوفر من تلك التأثيرات، بسبب من أنها غالباً ما تمثل القرينة الفاصلة بين تصريفات الكلمة من جهة، والدالة على اختلاف هوية العناصر النحوية في الحدث الكلامي، أو بيئة الكلمة وانتمائها اللهجي من جهة أخرى، ما جعلها عرضة للتنوع في بنى المفردات العربية وتراكيبها.

كلمات دالَّة: المصوتات، القراءات القرآنية، مصوت طويل، مصوت قصير.

(*) How to cite this article: Duraid A. S. (2015). "Al Athar al Dilālī li Tanawwu al Musawwitāt fil Qira'āt al Qur'āniyyah", QURANICA Special Issue 7a, (2015): 1-28.

[١] د. دريد عبد الجليل الشاروط، جامعة القادسية، العراق، duraid_jaleel@yahoo.com

مقدمة

لم تكن القراءات القرآنية في معزل عن التأثر بهذا التنوع الذي فرضته قوانين اللغة المختلفة، فقد كان من أبرز ملامح الاختلاف بين القراءات هو تنوع المصوتات المؤلفة لبنية الألفاظ القرآنية وسياقاتها، ولطالما مثلت بعض تلك التنوعات قراءة ما فكانت علماً على قارئها أو قرينة على تواترها أو شذوذها.

وبسبب من اختلاف المصوتات فيما بينها في مستويات ثقلها وقوتها فقد كان لذلك الاختلاف أثره الواضح في تعدد الدلالات السياقية والصوتية للقراءات القرآنية، وتأتي دراستنا لتكشف عن ملامح تلك الدلالات من خلال البحث في مستويات التوافق الصوتي لتلك القراءات وما تتميز به تنوعات مصوتاتها من دلالات ومديات انسجام تلك التنوعات مع الأطر الدلالية العامة والسياقات الصوتية الخاصة بالنص القرآني .

من هنا كان تقسيمنا لهذا البحث قائماً على أساس ما ينشأ عن اختلاف القراء (في تأدية الحركات) من تأثير في المقطع الصوتي لألفاظ القرآن الكريم، وقد أمكننا حصر ذلك الخلاف في مباحث ثلاثة مقسمة بحسب مستويات اللغة على:

١. تنوع المستوى اللهجي ٢- تنوع المستوى الصرفي ٣- تنوع المستوى النحوي

١- تنوع المصوت اللهجي:

لم يغب عن السليقة العربية حين نزول القرآن الكريم أن تدرك عظمة النسق الصوتي الذي انتظمت فيه ألفاظه، فعلى الرغم من غياب المصطلح اللغوي آنذاك، إلا أن العقلية العربية أدركت أن أصوات القرآن – الثابتة والمتغيرة – تجري في الوضع والتركيب مجرى الحروف أنفسها في ما هي له من أمر الفصاحة، فيهيئ بعضها لبعض ويسانده، وأنها تأتلف مع أصوات الحروف، وتساوقها في النظم الموسيقي حتى أنهم تلمسوا أثر بعض الأصوات التي – ربما- كانت ثقيلة في نفسها

لسبب من أسباب الثقل، فلا تعذب ولا تساغ، وأدركوا أنها حين استعملت في القرآن كان لها شأن عجيب[١].

غير أنهم لم يستطيعوا التحرر من هيمنة بعض المظاهر البيئية واللغوية على عاداتهم النطقية واللهجية فقد بقي البدوي يؤثر استعمال الضمة، في الوقت الذي أصر فيه ابن البيئة الحضرية على تغليب استعمال الكسرة في كلامه[٢] وقد ظهر أثر تلك المظاهر واضحاً في قراءات القرآن الكريم من خلال الاختلاف في أنواع المصوتات القصار والطوال في القراءة الواحدة.

أ– التنوع بالمصوت القصير:

قرأ ابن محيصن[٣] (رُجزاً) بضم الراء، بخلاف المشهور من قراءة قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزاً﴾[٤] بالكسرة، وقد ذهب الطبرسي في تفسير هذه الآية التي نزلت في قوم موسى(عليه السلام): إن الرجز ((بكسر الراء: العذاب في لغة أهل الحجاز... والرجز بضم الراء: عبادة الأوثان))[٥]، وزاد الجوزي على ذلك قوله: ((في ماهية هذا العذاب ثلاثة أقوال: أحدها أنه ظلمة وموت مات منهم في ساعة واحدة أربعة وعشرون ألفاً، وهلك سبعون ألفاً عقوبة، قاله ابن عباس، والثاني أنه أصابها الطاعون عذبوا به أربعين ليلة ثم ماتوا، قاله وهب بن منبّه، والثالث أنه هلك به منهم سبعون ألفاً، قاله سعيد بن جبير))[٦].

والمتأمل في الآية الكريمة يجد أن اختلاف القراءة انحصر في تغير المصوت في المقطع الأول من الآية الكريمة من / رِ/ في القراءة المشهورة إلى / رُ/ في قراءة ابن محيصن، ولو عدنا إلى تفسير الآية الكريمة لوجدنا أن دلالة الرجز على العذاب أقرب إلى معنى الآية من دلالة عبادة

---

١ انظر: الرافعي، مصطفى صادق. **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**. ٢٥٨

٢ انظر:أنيس، إبراهيم. **في اللهجات العربية**. ٩٠؛ أحمد مختار عمر. **علم الدلالة**. ٣٤،٣٥

٣ انظر: الدمياطي. **إتحاف فضلاء البشر**. ١٣٧؛ القرطبي. **الجامع لأحكام القرآن**. ١، ٤١٧

٤ البقرة: ٥٩

٥ الطبرسي. **مجمع البيان في تفسير القرآن**. ١، ٢٣٠

٦ ابن الجوزي. **زاد المسير في علم التفسير**. ١، ٧٣– ٧٤

الأوثان، ما يعني أن قراءة (رجزاً) بالمقطع / رِ/ تكون أكثر انسجاماً في المعيار الدلالي إذا كان الخلاف في القراءة دلالياً أما إذا كانت قراءة ابن محيصن تتفق مع قراءة الجمهور في الدلالة على معنى العذاب، ولا تختلف معها إلا في تنوع المصوت القصير في القراءتين، فإن القراءة بالمقطع الصوتي / رِ/ تكون أكثر انسجاماً مع السياق الدلالي للآية الكريمة من المقطع / رُ/ لكون عذاب قوم موسى لم يأت دفعة واحدة، وهذا ثابت بما تقدم من التفسير، لذا ناسب – صوتياً – أن يكون التعبير عن ذلك المعنى بمصوت الكسر / ِ/ الذي يحتل المرتبة الوسطى من مراتب الحركات في ثقله وقوة تصويته ؛ لأن مصوت الضم / ُ/ فيه من الثقل والقوة ما هو أكبر من مصوت الكسر / ِ/[١]، ومع هذا الثقل قد توحي اللفظة بهلاك القوم دفعة واحدة.

في مقابل ذلك قرأ حمزة والكسائي وأبو عمرو بن العلاء وابن عامر وابن كثير ونافع: (والرِّجز) بكسر الراء، بخلاف المشهور من قراءة قوله تعالى: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ (المدثر:٥)، بالضمة التي قال الطبري في تفسيرها: ((اختلفت القراء في قراءة ذلك، فقرأه بعض قراء المدينة وعامة قراء الكوفة: والرجز بكسر الراء، وقرأه بعض المكيين والمدنيين والرجز بضم الراء، فمن ضم الراء وجهه إلى الأوثان، وقال: معنى الكلام: والأوثان فاهجر عبادتها، واترك خدمتها، ومن كسر الراء وجهه إلى العذاب، وقال: معناه: والعذاب فاهجر ؛ أي ما أوجب لك العذاب من الأعمال فاهجر، والصواب من القول في ذلك أنهما قراءتان معروفتان، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب، والضم والكسر في ذلك لغتان بمعنى واحد، ولم نجد أحداً من متقدمي أهل التأويل فرّق بين تأويل ذلك وإنما فرق بين ذلك في ما بلغنا الكسائي))[٢]، وزاد الطبرسي أن ((الرجز بالضم قراءة الحسن، وهو اسم صنم في ما زعموا، وقال قتادة: هما صنمان إساف ونائلة ومن كسر فهو العذاب))[٣]، وقد ذهب الزجاج إلى أن معنى القراءتين واحد[٤]

---

١ انظر: دريد الشاروط . **مراتب الحركات في العربية**.

٢ الطبري. **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**. ٢٩، ١٨٤

٣ الطبرسي. **مجمع البيان في تفسير القرآن**. ١،١٧١

٤ انظر: ابن الجوزي. **زاد المسير في علم التفسير**. ٨، ١٢٢

وسواء أكان الرجز في الآية الثانية يشير إلى الأوثان، أم إلى ما أوجب لك العذاب من الأعمال فالغاية من ذلك واحدة وهي الأمر بالترك والهجر إلى أقصاه، ومن المناسب لهذا الأمر أن يعبر عنه صوتياً بمصوت الضم / ُ/ كونه المصوت الأقوى في مستويات التصويت والأكثر جهداً في الأداء.

ومثل ذلك قراءة ابن كثير ونافع وحمزة والكسائي وأبي عمرو بن العلاء وغيرهم[١] (إسوة) بكسر الألف، في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الأحزاب: ٢١)، الذي نزل في عتاب المتخلفين عن القتال، الذين كان عليهم أن يقتدوا بنبيهم(ﷺ) إذ بذل نفسه لنصرة دين الله في خروجه إلى الخندق[٢] وقد جاء في تفسيره: ((لقد كان لكم به اقتداء لو اقتديتم به في الصبر معه، كما صبر يوم أحد حتى كسرت رباعيته، وشج جبينه، وقتل عمه، وآساكم مع ذلك بنفسه، وقرأ عاصم أسوة بضم الألف والباقون بكسر الألف، وهما لغتان[٣]، قال الفراء أهل الحجاز وأسد يقولون إسوة بالكسر، وتميم وبعض قيس يقولون أسوة بالضم، وخص الله تعالى بهذه الأسوة المؤمنين فقال لمن كان يرجو الله واليوم الآخر))[٤]

نستخلص من هذا كله أن كلاً من أسوة وإسوة لغة، قرئ بها قوله تعالى المتقدم وقد اختلفت عن بعضها في نوع المصوت المصاحب لمقطعها الأول، فكان هذا المقطع في الأولى مضموماً / ء ُس/، في حين كان في الأخرى مكسوراً / ء ِس/، وبالنظر إلى ظروف الآية وأسباب نزولها، نجد أن قراءة/ء ُس/ أقرب إلى تجسيد دلالة التأسّي، إذ تدل قوة المصوت فيه على مستوى الاقتداء بالرسول الأعظم(ﷺ) الواجب أن يحرص عليه المؤمن لقاء رضوان الله تعالى

---

[١] قرأ بها ابن عامر وخلف ويعقوب وأبو جعفر والحسن، ينظر: إتحاف فضلاء البشر : ٣٥٤، إعراب القرآن، النحاس: ٢، ٦٣٠ معاني القرآن، الفراء: ٢، ٣٣٩

[٢] انظر: القرطبي. **الجامع لأحكام القرآن**. ٤١، ١٥٥

[٣] انظر: الجوهري. **الصحاح**. ٦، ٢٢٦٨

[٤] ابن الجوزي. **زاد المسير في علم التفسير**. ٦، ١٩٠

عليه فكما أن صوت الضمة يمثل أقصى درجات التصويت بالنسبة لغيره من المصوتات، فكذلك اقتداء المؤمنين بنبيهم(ﷺ) لا ينبغي أن تعلو عليه رغبات النفس ومخاوفها.

وهكذا يكون الحال مع قوله تعالى: ﴿وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾[١] التي أجمع القراء السبعة على كسر الغين فيها، في الوقت الذي روي عن ابن مسعود والأعمش أنهما قُرِءا كقراءة الجمهور مع فتح الغين وهي لغة ربيعة، وقرأ الحسن وعكرمة بضمها وهي لغة عكل[٢]، وقد فرق الحموي بين قراءتي الضم والكسر بأن غشاوة بضم أوله – وبعد الألف واو– يكون علماً مرتجلاً، لأن الغشاوة التي من الغشاء إنما هي بالكسر[٣]، ويمكن التفريق صوتياً بين القراءتين بالنظر إلى الفرق في مستويات التصويت بين مصوتي الضم / ُ/ والكسر / ِ/ فالقراءة بمصوت الضم / ُ/الأثقل توحي بحجب الرؤيا بغشاوة قاتمة لا ينفذ البصر إلى ما بعدها، أما القراءة بمصوت الكسر / ِ/ الأخف من الضم فتوحي بتحقق الرؤيا التي لا تقع على الأشياء بوضوح وصفاء ؛ لأنها تنفذ من خلال تلك الغشاوة الضبابية التي لا يتبين معها الحق من الباطل، وهو ما ترمي إليه الآية الكريمة.

كذلك الحال مع قراءة زيد بن علي[٤] (في طِغيانهم) في قوله تعالى: ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[٥] وقراءة أبي حيوة[٦]: (والعِدوان) في قوله تعالى: ﴿تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ (البقرة: ٧)

---

١ البقرة: ٧

٢ انظر: الطوسي. **التبيان في تفسير القرآن**. ١، ٦٣؛ والشوكاني. **فتح القدير**. ٥، ٨

٣ انظر: ياقوت الحموي. **معجم البلدان**. ٤، ٢٠٤

٤ انظر: ، أبو حيان الأندلسي. **البحر المحيط**. ١، ٧٠

٥ البقرة: ١٥

٦ انظر: ابن خالويه. **مختصر في شواذ القراءات**. ٧

ب– التنوع بالمصوت الطويل:

قرأ عمر بن الخطاب(ﷺ)[١] (القيَّام) في قوله تعالى: ﴿اللّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾[٢]، قيل إن (القيَّام) من قمت[٣]، قال ابن جني: ((إنه صفة على فيعال من قام يقوم، ومثله من الصفة الغيداق وأصله من القيوام، التقت الواو والياء، وسبقت الأولى بالسكون، فقلبت الواو ياء، وأدغم فيها الياء))[٤] ، وهي لغة أهل الحجاز[٥] وقد رويت هذه القراءة ((في الشواذ عن عمر بن الخطاب وابن مسعود وإبراهيم النخعي والأعمش وعن زيد بن علي بن الحسين وعن جعفر بن محمد الصادق، وعن النبي(ﷺ)))[٦] .

ونقل البخاري عن مجاهد قوله: إن ((القيّوم القائم على كل شيء، وقرأ عمر القيّام وكلاهما مدح))[٧] وقد عقب الكوراني على ذلك بقوله: إن ((المسألة هنا ليست في أن القيّام هل هو مدح أو ذم، حتى يقال: إنه مدح لله تعالى مثل القيوم، بل المسألة أن القيوم اسم من أسماء الله الحسنى، وهو توقيفي لا يجوز فيه التغيير ! فهل يصح أن تقول: بسم الله الرحمن الراحم، وتقول لا فرق، كلاهما مدح ؟ !))[٨].

وانفرد الجوهري بذكر أن (القيّام) لغة في القيّوم[٩]، وقد صرح الراغب بأن القيّام بناء آخر، ولم يقل إنه لغة في القيّوم[١٠]، غير أن ابن منظور نقل عن ابن الأعرابي قوله: إن القيّوم والقيّام والمدبّر

---

١ انظر: أبو جعفر النحاس: ١، ٣٠٨؛ أبو حيان الأندلسي. **البحر المحيط**. ٢، ٣٧٧

٢ آل عمران: ٢

٣ انظر: ابن حجر. **فتح الباري**. ٨، ٥١٠

٤ ابن جني. **المحتسب**. ١، ١٥١

٥ انظر: علوان، عبدالجبار. **الدراسات الصرفية عند ابن جني**. ٢٦٧

٦ الطبرسي. **مجمع البيان في تفسير القرآن**. ٢، ٢٣٣

٧ البخاري. **صحيح البخاري**. ٨، ١٨٤

٨ الكوراني. **تدوين القرآن**. ١٥١

٩ انظر: الجوهري. **تاج اللغة وصحاح العربية (الصحاح)**. ٥، ٢٠١٨

١٠ انظر: الراغب الأصفهاني. **المفردات في غريب القرآن**: ٤١٧.

واحد وزاد على ذلك: ((القيّوم والقيّام في صفة الله تعالى وأسمائه الحسنى: القائم بتدبير أمر خلقه في إنشائهم ورزقهم وعلمه بأمكنتهم.... والحيّ القيّوم أي القائم بأمر خلقه في إنشائهم ورزقهم، وعلمه بمستقرهم ومستودعهم وفي حديث الدعاء: ولك الحمد أنت قيّام السموات والأرض... وهي من أبنية المبالغة ومعناها القيّام بأمور الخلق وتدبير العالم في جميع أحواله، وأصلها من الواو قيوام وقيوم وقيووم، بوزن فيعال وفيعل وفيعول، والقيّوم: من أسماء الله المعدودة، وهو القائم بنفسه مطلقا لا بغيره))[١].

والحقيقة أننا بإزاء خلاف صوتي، لا يتعدى نطاق المصوت الطويل في المقطع المديد / يُ م/ من لفظة (القيّوم) والمقطع المديد / يَ م / من لفظة (القيّام)، فجمهور القراء على قراءة المقطع بالضمة الطويلة /ُ/، في حين قرأه بعض الصحابة والتابعين بالفتحة الطويلة /َ/ وقد تكون القراءة الأخيرة أكثر انسجاماً مع فواصل السورة الأخرى إذا أخذنا بالحسبان أن البنية الصوتية المؤلفة لتلك الفواصل – التي اعتمدت الوقوف على مقاطع مديدة – كان أغلب قممها تمثله الفتحة الطويلة /َ/ .

غير أن الناظر في الطبيعة الصوتية للمصوتين /َ/ و /ُ/ يجد أن المصوت الأخير أقرب إلى المناسبة مع دلالة اللفظة، إذ يوحي الثقل فيه بثبات قدرة الله(ﷻ) على القيام بأمر العباد وتدبير شؤونهم بخلاف ما تمنحه خفة المصوت /َ/ من دلالة صوتية قد لا تنسجم مع المعاني العظيمة والأزلية التي يحملها الاسم العظيم.

ويمكن ملاحظة مثل هذا التنوع في قراءة نافع وابن كثير والكسائي (سِيءَ) بكسر السين، وقرأ عيسى وطلحة (سُوءَ) بضمها وهي لغة بني هذيل وبني دبير [٢]، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا أَن جَاءتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالُوا لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ﴾[٣]، الذي يكاد

---

١ ابن منظور. **لسان العرب**. ٢١، ٤٠٥

٢ انظر: الآلوسي. **روح المعاني**. ٢٠، ١٥٦

٣ العنكبوت: ٣٣

يجمع المفسرون فيه على أن (سِيءَ) أصلها (سُوِءَ)، فأسكنت الواو ونقلت كسرتها إلى السين[١]، وفي تأويل الآية قولان: ((أحدهما ساء ظنه بقومه، قاله ابن عباس، والثاني ساءه مجيء الرسل ؛ لأنه لم يعرفهم، وأشفق عليهم من قومه، قاله ابن جرير))[٢]، ومع أن الثاني يبدو أقرب إلى معنى النص، إلا أن القولين يظهران لوطاً(عليه السلام) في وضع نفسي عصيب، إذ بدت على لوط (عليه السلام) مشاعر الخوف منهم، وما إن عرف قومه بوجودهم عنده، فهرعوا إليه يطلبونهم، حتى تملكه الحزن على ضيفه إذ لم يكن في وسعه أن يمنعهم منهم، فما كان من الرسل إلا أن سارعوا في بث الطمأنينة في قلبه حين قالوا له: (لا تخف ولا تحزن....).

يلاحظ من ذلك أن خوف لوط (عليه السلام) لم يكن أساسه الرعب بل الريبة والقلق على ضيوفه الذين لم يعرفهم من قبل لذا تكون لفظة (سيء) أقرب إلى تجسيد الواقع من (سوء) ؛ لأن في ثقل المصوت /ُ/ ما يوحي بعظم الخوف وهيمنته على لوط (عليه السلام) ووصوله إلى أقصى مستوياته وليس الأمر كذلك، إذ سرعان ما انتقل من خوفه ذاك إلى حزنه، حين ضاق بهم ذرعاً.

ومن ثم يمكن الإفادة من التدرج الصوتي التنازلي في الآية الكريمة في تلمس رأفة الله سبحانه بنبيه لوط (عليه السلام)، فما إن تملكه الخوف الذي عبر عنه ثقل المصوت /ِ/ في لفظة (سيء) حتى بدد الله خوفه بشعور أخف وطأة منه وهو الحزن الذي عبرت عنه خفة المصوت /ٔ/ في لفظة (ضاق)، هذا التقارب الصوتي بين مصوتي /ِ/ و /ٔ/ في قراءة (سيء) يكشف عن وجود تواصل بين شعوري الخوف والحزن اللذين غمرا لوطاً (عليه السلام)، في حين لا نجد مثل ذلك التواصل بين صوتي /ُ/ و /ٔ/ في قراءة (سوء) للفرق الواضح بين مستويات التصويت بالمصوتين.

٢- تنوع المصوت الصرفي:

لا تزال المصوتات في اللغة العربية تمثل عصب حياتها الذي رسّخ جذورها، وعزز من مكانتها بين اللغات، فإليها يعود الفضل في اتساع اللغة، وتعدد أشكال مفرداتها وصورها، إذ تعد هذه

---

١ انظر: الطبرسي. **مجمع البيان في تفسير القرآن**: ٥، ٣١١؛ وابن الجوزي. **زاد المسير في علم التفسير**: ٤، ١٠٧ .

٢ ابن الجوزي. **زاد المسير في علم التفسير**: ٤، ١٠٧

المصوتات من قرائن التمييز المهمة التي تفترق بها المعاني عن بعضها في الألفاظ التي تشترك في أصولها، وبها يمكن تعرف تصريف الكلمات لتحديد أسمائها وأفعالها والتفريق بين ما اشترك في بنيته الصرفية من أسمائها فضلاً على تعرف أبواب أفعالها، وعزلها عن بعضها.

أ– التنوع بالمصوت القصير:

يبدو أن سمة القِصَر التي غلبت على بعض من المصوتات، جعلتها لا تتمتع بحيز صوتي كافٍ يقيها من تأثير بعض الصوامت فيها، أو يمنعها من الالتباس ببعضها، وبما أن المستوى الأدائي للغة – إبان نزول القرآن الكريم – اعتمد على مشافهة العرب بعضهم لبعض، فقد امتدت بعض مظاهر اللبس التي أصابت اللغة إلى قراءات القرآن الكريم، إذ روي أن سابقاً الأعمى كان ((يقرأ (الخالق البارئ المصوَّر)[١]، فكان ابن جابان إذا لقيه قال: يا سابق ما فعل الحرف الذي تشرك بالله فيه ؟، وقرأ: (ولا تَنكِحوا المشركين حتى يؤمنوا)[٢]، وقال ابن جابان: وإن آمنوا أيضاً لم نَنكحهم))[٣].

وبسبب من بقاء القرآن يتنقل بين الناس مشافهة من عصر النزول إلى عصر التدوين، ولأن أكثر قراءات القرآن كانت تلتقي في أصول مفرداتها، وتفترق عن بعضها في بعض المصوتات فقد شهدت مثل تلك القراءات خلافاً واضحاً في دلالاتها الصوتية والسياقية ، من ذلك أن ابن كثير وابن محيصن وشبل كانوا يقرؤون (ويُمِدّهم) بكسر الميم في قوله تعالى: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[٤]، فقد كانت (يُمِد) عندهم من (أمَدّ) بخلاف القراءة المشهورة (يَمُد) من (مدّ) وعلى هذا ترتب خلاف في دلالة الفعل أفضى إلى خلاف في تفسير الآية، إذ قيل: إن ((ما كان من الشر فهو مددت وما كان من الخير فهو أمددت، فعلى هذا إن أراد تركهم فهو من مددت،

---

١ وذلك في سورة الحشر، ٢٤

٢ وذلك في سورة البقرة، ٢٢١

٣ الجاحظ. **البيان والتبيين**. ٢، ٢١٩

٤ البقرة: ١٥

وإن أراد إعطاءهم فهو من أمدهم))[١] وزاد الآلوسي: ((إذا استعمل أمدّ في الشر فلعله من باب فبشرهم بعذاب أليم، وقد ورد استعمال هذه المادة بمعنيين: أحدهما ما ذكرنا، وثانيهما الإمهال ومنه مدّ العمر والواقع هنا من الأول دون الثاني لوجهين: الأول أنه روي عن ابن كثير من غير السبعة، يمُدهم بالضم من المريد، وهو لم يسمع في الثاني والثاني أنه متعدٍ بنفسه والآخر متعد باللام، والحذف والإيصال خلاف الأصل فلا يرتكب بغير داعٍ فمعنى يمُدهم في طغيانهم: يزيدهم ويقويهم فيه، وإلى ذلك ذهب البيضاوي[٢] وغيره، والحق أن الإمهال هنا محتمل.... والوجهان مخدوشان، فقد ورد عند من يعول عليه من أهل اللغة: كلٌّ منهما ثلاثياً ومزيداً ومعدّى بنفسه وباللام وكلاهما من أصل واحد، ومعناهما يرجع إلى الزيادة كماً أو كيفاً))[٣].

والناظر في البنية المقطعية لموضع الخلاف في القراءتين يجد أن المقطعين الأول والثاني من لفظة (يمدهم) قرئا:

مرة بالفتح والضم / ي َ/ م ُد/ وهي القراءة المشهورة

وأخرى بالضم والفتح / ي ُ/ م ِد/ وهي قراءة ابن كثير وابن محيصن

فعلى القراءة الأولى يكون هناك فرق في مستويات التصويت بين المقطعين الأول والثاني قاد إلى حصول نقلة صوتية من المصوت الأضعف / َ/ إلى المصوت الأقوى / ُ/ ما يمكن أن يصور مثل هذا الفرق صورة ما قبل المد وبعده، ويجعلنا نتلمس صوتياً حجم الشر الذي لم تتصاعد حدته في نفوسهم تدريجياً بل تسارع إلى القفز من أدنى مستوياته إلى أعلاها واستقر عند أوج حالاته المفضية إلى الطغيان.

أما على القراءة الأخرى فالواضح أن هناك تدرج تنازلي في مستويات التصويت بمصوتي المقطعين من الأثقل إلى الأخف، وقد لا يتفق هذا التدرج ومعاني الزيادة التي أكدها المفسرون.

---

١ الطوسي. **التبيان في تفسير القرآن**: ١، ٨١.

٢ انظر: البيضاوي. **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**. ١، ١٧٩

٣ الآلوسي. **روح المعاني**. ١، ١٥٩

ويصدق مثل ذلك على اختلاف قراءة (يصدر) في قوله تعالى: ﴿قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾[١] التي قرأها الجمهور بضم الياء وكسر الدال / ي ُص/ د ِ/، على أنها مضارع الفعل المتعدي (أصدَرَ)، وقرأها ابن عامر وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح الياء وضم الدال / ي َص/ د ُ/ على أنها من الفعل اللازم (صَدَرَ)[٢]، فالتدرج التنازلي في مصوتات لفظة (يُصدِرَ) في قراءة الجمهور من المصوت / ُ/ إلى المصوت / ِ/ ثم إلى المصوت / َ/ فيه مناسبة أكبر مع دلالة الفعل (يصدر) في الآية الكريمة التي تعني انفضاض الرعاء عن المورد.

ولم يقتصر تنوع المصوتات على بعض المواضع التي تركز اختلاف القراءات فيها على اشتقاق الفعل المضارع من الماضي الثلاثي أو من الماضي الرباعي، بل لقد برز التنوع بصورة أكبر في القراءات التي اختلف فيها بين ما كان مبنياً للمعلوم من الأفعال وما بني منها للمجهول، فمن ذلك – مثلاً– قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو وابن عامر وحميد وأبي جعفر[٣] وعامة قراء البصرة[٤] (وصَدَّ)، في مقابل قراءة عامة أهل المدينة وأهل الكوفة (وصُد) بضم الصاد على ما لم يسمَّ فاعله، عطفاً على (زُين)[٥] وذلك في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾[٦]، وقد تعددت الآراء في تأويل ذلك الخلاف، فقال الطبري: إن قولهم: (صُد عن السبيل) بضم الصاد، تعني فُعل ذلك به ، في حين تأتي (صَد) بفتح الصاد على معنى: وأعرض فرعون عن سبيل الله التي ابتعث بها موسى(عليه السلام) استكباراً ثم انتهى إلى القول: إن الصواب من القول في ذلك أن يقال: إنهما قراءتان معروفتان في قراءة الأمصار فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب[٧]،

---

١ القصص، ٢٣

٢ انظر: الشوكاني. **فتح القدير**: ٤، ١٦٦

٣ انظر: الطبري. **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**: ٢٤، ٨٣، الزمخشري. الكشاف : ٣،٤٢٨

٤ قرأ بها كذلك حمزة والكسائي وعاصم ، ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ٢٤، ٨٣، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، الثعالبي: ٥،١٦٦

٥ انظر: الطوسي. **التبيان في تفسير القرآن**: ٩، ٧٧، **الطبري**. جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ٤٢، ٨٣.

٦ غافر: ٣٧

٧ انظر: الطبري. **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**: ٢٤، ٨٣

وقد خالفه الطوسي في أن ((من ضم أراد: صده الشيطان عن سبيل الحق، وطابق قوله تعالى: (زين لفرعون سوء عمله) ومن فتح الصاد أراد أنه صد غيره عن سبيل الحق))[١]، وزاد في موضع آخر ((فأما قوله (وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل) فالفتح الوجه ؛ لأنه لم يصده عن الإيمان أحد، ولم يمنعه منه، والذي زين ذلك له الشيطان))[٢].

والحقيقة أننا بإزاء خلاف صوتي انحصر ببنية المقطع المغلق من الفعل (صد)، فكان بعض من القراء يقرأ هذا المقطع بالضم / ص ُد/، وذهب الفريق الآخر منهم إلى قراءته بالفتح / ص َد/، ولو أخذنا بالحسبان أن نقطة شروع التضليل كانت من المقطع المغلق /ز ُي/ في الفعل (زين) الذي مثلت قوة مصوته مستوى إغراء الشيطان لفرعون وإقناعه بالوجه المشرق لسوء عمله، فإن ذلك يستدعي أن يُقابل بردة فعل تناسبه في مستوى الاستجابة وشدة الاعتقاد لذا تكون قراءة / ص َد/ بالفتح غير متوافقة صوتياً مع هذا المعادلة ؛ لأن ما تقدم من عظيم الإغراء الذي عبر عنه ثقل الضمة في المقطع الأول / ز ُي / من الفعل (زين) يحتاج إلى ما يماثله في الطرف المقابل من القول، وقراءة / ص َد / بالفتح توحي بضعف استجابة فرعون للشيطان، وهذا يعني عدم جدوى فعل الإغراء المتقدم، بخلاف ما تجسده قوة الضمة في قراءة / ص ُد / من إيحاء بانقياد فرعون المطلق لعمل الشيطان، زيادة على أن مطابقة المصوت /ُ/ في (صد) لنظيره في الفعل (زين) فيها ما يؤكد أن القوة التي أضلت فرعون وأغرته بفساده، هي ذاتها التي صدته ومنعته من أن يبصر سبيل الله.

ولا تكاد آيات القرآن الكريم تخلو من مثل هذا الاختلاف الناشئ عن اتفاق كثير من الأفعال المبنية للمعلوم ونظرائها المبنية للمجهول في الصوامت واختلافها في المصوتات، فمن ذلك

---

١ الطوسي. **التبيان في تفسير القرآن**: ٩، ٧٧– ٧٨ ، وانظر: الفيض الكاشاني. **التفسير الصافي**. ٤، ٣٤١

٢ المرجع السابق. ٦، ٢٥٧– ٢٥٨

قراءة أبي حيوة شريح بن يزيد[١] (فبَهُت) في قوله تعالى: ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾[٢] وقراءة ابن عامر وعاصم وأبي بكر والحسن[٣] (وسيُصلون) في قوله تعالى: ﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً﴾[٤].

من جانب آخر امتد اختلاف القراءات القرآنية ليصل إلى المشتقات من الأسماء المشتركة في صيغها الصرفية، فمن ذلك قراءة ابن كثير وأبي عمرو وروح وغيرهم[٥] (فمستقِر) في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِيَ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾[٦] الذي اختلف في تفسيره، فقال الطبري: معناه ((فمنكم مستقِر في الرحم ومنكم مستودَع في القبر حتى يبعثه الله لنشر القيامة))[٧]، وذهب العياشي إلى أن ((المستقر ما استقر الإيمان في قلبه فلا ينزع منه أبداً، والمستودع الذي يستودَع الإيمان زماناً ثم يُسلَبه))[٨] وتابعه على ذلك القمي[٩]، وقد فرق الطوسي بين القراءتين بقوله: فمن كسر القاف كان المستقر بمعنى القار، والخبر مضمر، وتقديره منكم مستقِر في الأرحام ومنكم مستقر في الأصلاب، ويحتمل أن يكون مستقراً في الدنيا موجوداً، ومستودعاً في الأصلاب لم يخلق بعد، أو مستقِراً في الأحياء، ومستودعاً في الثرى، ومن فتح فليس على أنه مفعول، لأن استقر لا يتعدى، وإذا لم يتعد لم يبنَ منه اسم مفعول، وإذا لم يكن مفعولاً به كان اسم مكان، وهذا يعني أن من فتح القاف جعل المستودع مكاناً ليكون مثل المعطوف عليه، وتأويله: فلكم

---

١ انظر: أبا حيان. **البحر المحيط**: ٢، ٢٨٩

٢ البقرة: ٢٥٨

٣ انظر: الداني. **التيسير في القراءات السبع**: ٩٤.

٤ النساء: ١٠

٥ قرأ بها كذلك ابن عباس وسعيد بن جبير وابن محيصن واليزيدي والحسن وعيسى والأعرج وشيبة والنخعي ، ينظر: التيسير في القراءات السبع، أبو عمرو الداني: ٨٧ ، الإقناع في القراءات السبع، ابن باذش: ٣٩٨، النشر في القراءات العشر، ابن الجزري: ٢،٢٦٠ الجامع لأحكام القرآن: ٧،٤٦

٦ الأنعام: ٩٨

٧ الطبري. **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**: ٧، ٣٧٣

٨ العياشي. **التفسير العياشي**. ١، ٣٧١

٩ انظر: أبا الحسن القمي . **تفسير القمي**: ١، ٢١٢

مكان استقرار ومكان استيداع[١]، وقد ذهب صاحب الميزان إلى أن قراءة (مستقر) بكسر القاف ((هي الرجحى، (مستقِر) اسم فاعل ويكون المستودَع اسم مفعول لا محالة والتقدير فمنكم مستقِر ومنكم مستودَع.... ومن الممكن أن يؤخذ مستقر ومستودع مصدرين ميميين))[٢]، في حين رجح غيره القراءة بالفتح فقيل في معنى الآية: أن الله ((أنشأكم من أصل واحد هو آدم أبو البشر، وآدم من الأرض، فالأرض هي مكان استقراركم مدة حياتكم، ومستودَع لكم بعد مماتكم))[٣].

والمتأمل في سياق الآية الكريمة، يجد أنها تمحورت حول موضوع تكرر ذكره في مواضع عدة من القرآن الكريم وهو تذكير الناس ببعض المشتركات التي تجمعهم بغية ترسيخ مبدأ المساواة بينهم في مسألة النشأة من أصل واحد، ثم يؤكد بقوله: (فمستقر ومستودع) أن المراد – بالجملة– هو فمنكم مستقر ومنكم مستودع، وفي مثل هكذا سياق يكون الطرف الثاني عادة مخالفاً للطرف الأول كما في قوله تعالى: ((فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر))[٤]، ولكن المخالفة هنا لم تتوقف عند سياق الآية بل تعمقت إلى البنية المقطعية للمفردتين (مستقر ومستودع)، ففي المفردة الأولى نجد البناء المقطعي يتجه تصاعدياً من المقطع المفتوح /ت ـَ/ إلى المقطع المغلق /ق ـِ ر/، وعلى النقيض من ذلك نجد البناء المقطعي في المفردة الأخرى ينحدر تنازلياً من المقطع المغلق /ت ـَ و/ إلى المقطع المفتوح /د ـَ/، يضاف إلى هذا الخلاف أنه إذا كانت قراءة (فمستقِر) بالكسر /ـِ/ فإنها ستكون على معنى اسم الفاعل المخالف في دلالته وصيغته لـ (مستودَع) التي تأتي بمعنى اسم المفعول، على هذا الأساس تكون البنية المقطعية للمفردتين بالشكل:

/ف ـَ/ م ـُس/ ت ـَ/ ق ـِ ر/ ر ـُن/

/و ـَ/ م ـُس/ ت ـَ و/ د ـَ/ ع ـُن/

---

١ انظر: الطوسي. **التبيان في تفسير القرآن**: ٤، ٢١٣– ٢١٤؛ والأزهري. **معاني القراءات**. ١٦٢– ١٦٣

٢ الطباطبائي. **الميزان في تفسير القرآن**. ٧، ٢٨٨

٣ محمد إسماعيل. **القرآن وإعجازه العلمي**. ١٠٣

٤ الأحزاب: ٣٣

مثل هذا التدرج والمخالفة الصوتية والدلالية لا نجدها تتوافر في قراءة (فمستقَر) بالفتح، إذ يكون مصوت المقطع الطويل المغلق /ق ـَ ر/ مشابهاً لمصوت المقطع الطويل المفتوح /د ـَ/ في (مستودَع) وبهذا يخسر السياق المخالفة الدلالية والصرفية والصوتية ، لتنحصر المخالفة عند ترتيب المقاطع في اللفظتين ولا يبقى للمصوتات دور في تعضيد المخالفة السياقية.

ويمكننا تلمس مثل هذا الخلاف في مواضع أخرى من القرآن الكريم، كقراءة عبيد بن عمير[١] (مطهِّرة) في قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾[٢]، وقراءة الكسائي والحسن[٣] (محصِنات) في قوله تعالى: ﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ﴾[٤].

ب– التنوع بالمصوت الطويل:

قرأ أبو مجلز وسعيد بن جبير[٥] (والإيصال) في قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾[٦]، قال الجوهري في الأصيل: ((الوقت بعد العصر إلى المغرب وجمعه أصل وآصال وأصائل، كأنه جمع أصيلة))[٧] ونقل القرطبي عن قتادة وابن زيد قولهما: ((الآصال العشيات، والغدو جمع غدوة، وقرأ أبو مجلز (بالغدو والإيصال) وهو مصدر آصلنا، أي دخلنا في العشي، والآصال جمع أصل، مثل طنب وأطناب فهو جمع الجمع والواحد أصيل جمع على أصل))[٨]، وزاد صاحب الميزان

---

١ انظر: الزمخشري. **الكشاف**. ١، ٥٣

٢ البقرة: ٢٥

٣ انظر: الداني. **التيسير في القراءات السبع**. ص ٩٥

٤ النساء: ٢٥

٥ انظر: ابن جني. **المحتسب**. ٢، ١١٣؛ الطوسي. **التبيان في تفسير القرآن**. ٧، ٣٨٩

٦ النور: ٣٦

٧ الجوهري. **الصحاح**. ٤، ١٦٢٣

٨ القرطبي. **الجامع لأحكام القرآن**. ٧، ٣٥٥

قوله: إن ((التسبيح بالغدو والآصال كناية عن استمرارهم فيه، لا أن التسبيح مقصور في الوقتين لا يسبح له في غيرهما))[١].

ويبدو أن اشتراك صيغة جمع الجمع من اسم الأصيل، مع صيغة المصدر من الفعل الرباعي آصل – في بنية صرفية تكاد تكون واحدة – هو الذي قاد إلى ظهور هذا الاختلاف في هذه الآية الكريمة، وبالنظر إلى التشكيل المقطعي لعبارة (بالغدو والآصال) نصل إلى أن هذا التشكيل جسّد بتدرج مصوتاته – صعوداً وهبوطاً– حركة الشمس على مدار اليوم ليعبر بتلك الحركة عن استمرار تسبيح أولئك الرجال من دون انقطاع، كما يظهر في (شكل رقم١):

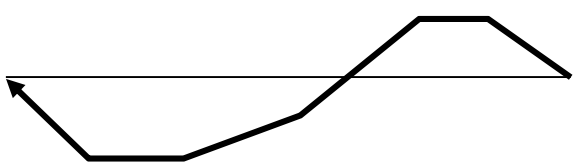

فالمتأمل في هذا التشكيل يجد أن التدرج في أنواع مصوتاته ابتدأ بالصعود أولاً من مصوت الكسر/ ِ/ في المقطع الأول / ب ِ ل/ مرتقياً إلى الضمة / ُ/ في المقطع الثاني /غ ُ/، للدلالة بقوته على بدء انتشار الضوء في أفق السماء من وقت الفجر، مروراً بارتفاعه في وقت الضحى حتى وقت صلاة الظهر، واستقراره في المقطع الثالث /د ُو/ ، ثم تلا ذلك ظهور التدرج التنازلي في أنواع المصوتات إذ بدأ الهبوط من الضمة / ُ/ في المقطع الثالث إلى الكسرة / ِ/ في المقطع الرابع /و ِ/، للدلالة على انحسار الضوء من أفق السماء في وقت العصر، ثم استمر ذلك الهبوط إلى ظهور الفتحة/ َ/ في المقطع الخامس /و َ ل/ لتدل بضعفها على بدء حلول الظلام في وقت الأصيل.

---

١ الطباطبائي. **الميزان في تفسير القرآن**. ١٥، ١٢٦

ثم تلا ذلك ظهور التدرج التصاعدي في مدة المصوتات لا في أنواعها لإحداث المغايرة بين التدرجين التصاعديين، إذ بدأ الامتداد بالتصاعد تدريجياً من الفتحة القصيرة /ـَ/ في المقطع الخامس باتجاه الفتحة الطويلة /ـً/ في المقطعين السادس /ء ـُ/ والسابع /ص ـُ/، وذلك للدلالة على امتداد الظلام، وظهوره في صورة واحدة على مدار ساعات الليل، إلى حين ظهور فجر اليوم التالي الذي وصل بنا إلى المقطع الثامن /ل ـِ/ ليعود مصوت الكسر /ـِ/ الذي ابتدأنا به إلى الظهور ثانية لتتم الحلقة ويبدأ المنحنى برحلة يوم جديد، وبهذا ظهر أن المراد بالتسبيح بالغدو والآصال هو استمرار التسبيح في أوقات النهار والليل جميعاً، لا في وقتي الفجر والمغرب حصراً كما ذهب إلى ذلك كثير من المفسرين ومن ثم تكون القراءة بالمصوت الطويل /ـُ/ أقرب إلى التعبير عن المراد من سياق الآية الكريمة، ذاك أن القراءة بالمصوت الطويل /ـٍ/ تتسبب في حصول تدرج تصاعدي في مدة المصوتات بين المقطعين الخامس /و ـَ ل/ والسادس /ء ـٍ/، إلى جانب حصول تدرج تنازلي في نوع المصوتات بين المقطعين السادس والسابع (بالشكل رقم٢):

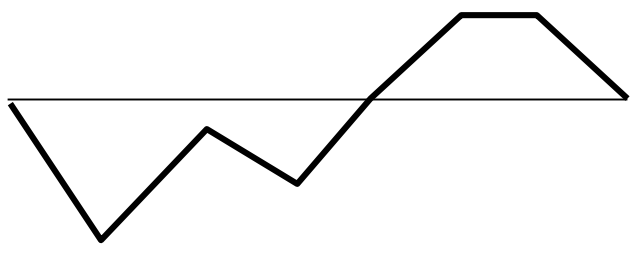

ولا نعتقد أن في هذين التدرجين ما يمكن أن يخدم دلالة السياق المتقدمة صوتياً أو مقطعياً، إذ لا نرى في وجودهما أي تساوق مع طبيعة التدرجات السابقة عليهما.

ومثل ذلك التنوع الصرفي يمكن ملاحظته في الأفعال المبنية للمعلوم وما يتفق معها من المبني للمجهول في بعض أصولها نحو قراءة أبَيّ بن كعب[١]: (ما طيبَ) في قوله تعالى:

---

١ انظر: القرطبي. **الجامع لأحكام القرآن**. ٥، ١٥

﴿فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾[١]، فخفة المصوت الطويل /ـَـ/ في المقطع المفتوح /طـَـ/ تجعل مساحة التشريع وحرية الخيار أوسع، في الوقت الذي يدل ثقل المصوت الطويل /ـِـ/ في المقطع الطويل المفتوح /طـِـ/ على ضيق تلك المساحة وتقييد حرية الخيار، ومن ذلك – أيضاً– قراءة ابن عامر وابن كثير[٢]: (يُوصَى) في قوله تعالى: ﴿مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾[٣].

٣– تنوع المصوت النحوي:

لم تكن للمصوتات الإعرابية المميزة لعناصر الحدث الكلامي قواعد صارمة تلزم العربي باستخدامها في تعاملاته اليومية، فغالباً ما كانت الرخص تفرض تأثيرها على نظام اللغة المتفق عليه اجتماعياً، مرة بالإعراض عن ذكر تلك المصوتات إلى حد وقوع بعض من الشعراء في مأزق الإقواء، بسبب من عدم اتكائهم في قوافيهم على الحركة، وأخرى باستبدالها بغيرها من المصوتات، حين يؤمن اللبس، إذ تصبح قرائن الحال، أو القرائن اللفظية والمعنوية دالة على أركان الجملة، من دون الحاجة إلى وجود قرائن الإعراب في مواضعها الأصلية، من ذلك أن يقال – مثلاً–: أكل زيداً تمرٌ.

من جانب آخر، أهمل بعض من العرب العناية بوظائف تلك الحركات، حتى كانت– في بعض الأحيان– لا تمثل غير أصوات تصل الألفاظ بعضها ببعض، قال سيبويه: ((زعم الخليل أن الفتحة والكسرة والضمة زائدة، وهن يلحقن الحرف ليوصل إلى التكلم به))[٤] معنى ذلك أن ((الحركة في العربية هي المصوت الذي يصاحب الصامت، ليساعد على نطقه))[٥]، وقد أسهم هذا المفهوم في تفشي حالات من اللحن، لم يكن العرب يدركون مدى خطورتها، حتى

---

١ النساء: ٣

٢ انظر: النحاس. **إعراب القرآن**. ١، ٤٠٠ ؛ الطوسي. **التبيان في تفسير القرآن**. ٣، ١٢٨

٣ النساء: ١١

٤ سيبويه. **الكتاب**. ٤، ٢٤١– ٢٤٢

٥ العبيدي. **مباحث في علم اللغة واللسانيات**. ٩٣

بلغت كتاب الله تعالى، فكان أحدهم يقرأ[١]: (لا يأكله إلا الخاطئين)[٢] وآخر يتلو: (إن الله برئ من المشركين ورسولِه)[٣]، ثم لم يلبث أن انتقل اللحن إلى قراء القرآن الكريم، فقد روى الجاحظ أن الحسن البصري ((غلط في حرفين من القرآن مثل: (ص والقرآنُ)[٤]، والحرف الآخر: (وما تنزلت به الشياطون)[٥]))[٦].

وبسبب من هذه المواقف ونظائرها، ارتبطت نشأة النحو العربي ارتباطاً وثيقاً بالقرآن الكريم[٧] وكان قد سمي أولاً بعلم الإعراب ؛ لأن الإعراب كان ((أجلى ظاهرة فيه، وأبرز وأدق مسألة من مسائله فكأن النحو وضع من أجل الإعراب)) [٨]، غير أن هذا العلم الذي وضع للحفاظ على لغة القرآن ومنع تسرب اللحن إليه، فتح الأبواب مشرعة أمام خلافات نحوية وفقهية عدة، اتسعت على أثرها مساحة الخلاف في القراءات القرآنية، ولاسيما أن بعضاً من القراء أخذ يجتهد في تغيير القراءة، بسبب تداخل كثير من المسائل النحوية، والتباس بعضها ببعض، فقد كان أبو عمرو بن العلاء ((في مجال الآيات القرآنية يقرأ بما روي، ولا يكتفي بذلك بل يصحح هذه القراءة بما سمع، وبما قال العرب))[٩] وبهذا أخذنا نشهد ظهور قراءات متنوعة، كان خلاف القراء فيها محصوراً بتنوع مصوتات الإعراب، وما ينتج عن ذلك التنوع من أثر في دلالة الجملة القرآنية.

---

١ انظر: الأنباري. **نزهة الألباء**. ١٧

٢ سورة الحاقة: ٣٧

٣ سورة التوبة: ٣

٤ ص: ١، ٢

٥ سورة الشعراء: ٢١٠

٦ الجاحظ. **البيان والتبيين**. ٢، ٢١٩

٧ مكرم، عبد العال سالم. **القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية**. ٤٥

٨ السعدي، عبدالقادر. **أثر الدلالة النحوية واللغوية في استنباط الأحكام**. ٣٩

٩ مكرم. **القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية**. ٦٩

أ- التنوع بالمصوت القصير:

قرأ ابن كثير وابن عباس ومجاهد (فتلقى آدمَ من ربه كلماتٌ)، وقرأ الجمهور: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾[١]، قال الطبري: إن من قرأ بنصب (آدم) ((جعل الكلمات هي المتلقية آدم، وذلك وإن كان من وجهة العربية جائزاً – إذ كان كل ما تلقاه فهو له متلق، وما لقيه فقد لقيه، فصار للمتكلم أن يوجه الفعل إلى أيهما شاء ويخرج من الفعل أيهما أحب – فغير جائز عندي في القراءة إلا رفع (آدم) على أنه المتلقي الكلمات، لإجماع الحجة من القراء وأهل التأويل من علماء السلف والخلف على توجيه التلقي إلى آدم دون الكلمات))[٢]، وقد رجح الطوسي هذا الرأي بقوله: ((تقول: تلقيت الرجل بمعنى استقبلته، وتلقاني: استقبلني فعلى هذا يجوز في العربية رفع آدم، ونصبه، مع رفع الكلمات، والاختيار قراءة الأكثر ؛ لأن معنى التلقي ههنا القبول، فكأنه قال: قبِل))[٣]، في حين لا يكون معنى التلقي القبول في قراءة ابن كثير، بل معناه أن الكلمات بلغته فتداركته بالنجاة والرحمة[٤].

كذلك ذهب القرطبي إلى أن ((الكلمات فاعلة، وكأن الأصل على هذه القراءة (فتلقت آدمَ من ربه كلماتٌ) ولكن لما بعُد ما بين المؤنث وفعله، حسن حذف علامة التأنيث، وهذا أصل يجري في كل القرآن والكلام إذا جاء فعل المؤنث بغير علامة.... وقيل: إن (الكلمات) لما لم يكن تأنيثه حقيقياً، حمل على معنى الكلم فذكّر))[٥].

وقد لا نجد ما يدعونا للاتفاق مع هذا الرأي موضوعياً ؛ لأن القراءة بنصب (آدم) تجعل المعنى ينصرف إلى أن وجود الكلمات كان سابقاً على معصية آدم(عليه السلام) ؛ أي: كأنها أعدت لاستقباله حين ينتبه من غفلته، كي تتلقاه وتهديه السبيل إلى التوبة، وهذا الأمر قد يبعث

---

١ البقرة: ٣٧

٢ الطبري. **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**. ١، ٣٤٧

٣ الطوسي. **التبيان في تفسير القرآن**. ١، ١٦٦

٤ انظر: الطبرسي. **مجمع البيان في تفسير القرآن**. ١، ١٧٥؛ الطبرسي. **تفسير جوامع الجامع**. ١، ٩٧

٥ القرطبي. **الجامع لأحكام القرآن**. ١، ٣٢٦

على التصور أن لا خيار للعبد في تجنب الخطأ، ولا قيمة لاجتهاده في صالح الأعمال، ما دام ثوابه وعقابه قد أعدا له سلفاً.

من جهة أخرى يمكن النظر إلى أن لفظة (كلمات) تكررت أربع مرات في القرآن الكريم، وذلك في قوله تعالى: (فتلقى آدم من ربه كلمات)[١] الذي نحن في صدد دراسته وفي قوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾[٢]، وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾[٣].

وبمقابلة سياق هذه الآيات، نجد أن سياق الآية الأولى بني أساساً على مخالفة سياق الآيتين التاليتين من جوانب أولها: أن لفظة (كلمات) ظهرت في الآية الأولى نكرة، في حين جاءت في الآيتين معرفة، والجانب الثاني: أنها تأخرت في الموضع الأول عن لفظة الرب ؛ لأن محور الآية تركز في ما هو أهم من الكلمات أي علاقة آدم بربه، في حين تقدمت الكلمات على لفظة الرب في الموضعين الآخرين ؛ لأن محور الكلام كان يرتكز على كلمات الله حصراً، ويتمثل الجانب الثالث في: أن وجود لفظة (كلمات) في سياق الآية الأولى يستشف منه معنى القلة، يدلنا على ذلك أمران أحدهما: أن التوبة حصلت لآدم(عليه السلام) لمجرد أن تلقى الكلمات، وهذا ثابت بوجود فاء العطف في قوله (فتابَ) التي تدل على قصر الزمن بين التلقي والتوبة، في الوقت الذي لا يستشف من سياق الآيتين غير معنى الكثرة في لفظة الكلمات، ومن ثم لا يكون للمصوتات إلا أن تصطف مع مبدأ المخالفة الواضح في تلك الجوانب لتتضافر معها لتحقيق المخالفة السياقية في وجهها الأكمل، فحيث كان المصوت الإعرابي للفظة (كلمات) الضمة / ُ / في كلا الآيتين معبراً بثقله عن معنى الكثرة التي يرمي إليه سياق الآيتين، فقد بات من اللازم أن يكون المصوت الإعرابي للفظة (كلمات) في الآية الأولى هو الكسرة / ِ / بغية التعبير بخفته عن معنى مغاير لمعنى الكثرة في الآيتين

---

١ البقرة: ٣٧

٢ الكهف: ١٠٩

٣ لقمان: ٢٧

ويمكن ملاحظة مثل ذلك التنوع في قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾[١] أي احتضر[٢]، فقد قرأه ((الجمهور على نصب (يعقوب) ورفع (الموت) وقرئ بالعكس والمعنيان متقاربان))[٣] عند العكبري، وقد فسر القرطبي قوله: (حضر يعقوب الموت) ((أي مقدماته وأسبابه، وإلا فلو حضر الموت لما أمكن أن يقول شيئاً))[٤]، وإلى ذلك ذهب الثعالبي[٥] أيضاً، وهو الأنسب في ما يبدو لأن الموت يمثل حيناً ثابتاً، أما الإنسان فهو المتحرك والساعي باتجاهه وليس العكس، قال تعالى: ﴿كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[٦]، وعلى ذلك تكون خفة الفتح /َ/ في نصب يعقوب في مقابل ثقل الضم /ُ/ في رفع الموت، أنسب في دلالتهما على ضعف يعقوب الإنسان في مقابل قوة القضاء وسطوته وتجهزه للسير إلى لقاء ربه في مقابل ثبات الأجل في مكانه وموعده، وتخففه بإبلاغ وصيته لبنيه في مقابل ثقل لحظات فراقه عنهم، وهكذا الحال مع قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[٧] الذي قرئ شذوذاً برفع لفظ الجلالة ونصب العلماء[٨].

ب– التنوع بالمصوت الطويل:

قرأ عبد الله بن مسعود وأبيّ بن كعب وابن عباس (ذا عسرة) في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾[٩]، الذي جاء في تفسيره: أي من غرمائكم إن كان معسراً، وقيل: إن حدث

---

[١] البقرة: ١٣٣

[٢] انظر: الطبرسي. **تفسير جوامع الجامع**. ١، ١٥٣

[٣] العبكري. **إملاء ما من به الرحمن**. ١، ٦٤

[٤] القرطبي. **الجامع لأحكام القرآن**. ٢، ١٣٧

[٥] انظر: الثعالبي. **الجواهر الحسان في تفسير القرآن**. ١، ٣٢٣

[٦] فاطر: ١٣

[٧] فاطر: ٢٨

[٨] وردت هذه القراءة عن عمر بن عبد العزيز وأبي حنيفة وأبي حيوة، انظر: القرطبي. **الجامع لأحكام القرآن**. ١٤، ٣٤٤

[٩] البقرة: ٢٨٠

ذو عسرة، أو إن كان ذو عسرة لكم عليه حق[١]، وقد جاء في تفسير القراءة الأخرى: وإن كان الغريم أو المطلوب ذا عسرة[٢].

وفي إعراب القراءتين قيل: إن (ذو) ارتفع ((لأحد وجهين: أحدهما: حذف الخبر وتقديره: وإن كان ذو عسرة غريماً لكم، الثاني: أن تكون (كان) التامة المكتفية باسمها، وتقديره: وإن وقع ذو عسرة أو وجد ذو عسرة))[٣] ويجوز في (ذا) النصب على أنها خبر كان الناقصة المعين اسمها بتقدير الكلام السابق، قال الطبري: ((وذلك وإن كان في العربية جائزاً، فغير جائزة القراءة به عندنا، بخلافه خطوط مصاحف المسلمين))[٤].

وبالعودة إلى البناء المقطعي للقراءتين نجد أن القراءة المنسوبة لأبي بن كعب اعتمدت مصوت الفتح /ـَ/ في المقطع الطويل المفتوح /ذ ـَ/ بخلاف قراءة الجمهور التي اعتمدت مصوت الضم /ـُ/ في المقطع الطويل المفتوح / ذ ـُ/ ويمكننا من خلال استشعار الفرق بين ثقل المصوتين تقدير أن مصوت الضم /ـُ/ فيه من المناسبة مع مصوت المقطع الطويل المغلق /ع ـُس/ ومع سياق الآية ما هو أكبر من مصوت الفتح /ـَ/، ذاك أن الثقل المضاعف لمصوت الضم الطويل وما يرافقه من جهد الجهاز النطقي المصاحب لأدائه ينسجم إلى حد ما وحال المعسر التي تستلزم الضيق وتكلف العيش، وهذا ما لا نستشعره صوتياً في القراءة بمصوت الفتح /ـَ/ الذي قد لا ينسجم صوتياً حتى مع مصوت المقطع الطويل المغلق /ع ـُس/ من كلمة (عسرة) كون عملية النطق بـ /ذ ـَ ع ـُس/ ستشهد تنقل أعضاء النطق بين صوتين متباعدين ابتداء من أقصى مستوى للانفراج وأوسع مجال للتصويت وهو /ـَ/ ثم الانتقال مباشرة إلى أدنى مستوى للانكماش وأضيق

---

١ انظر: الطوسي. **التبيان في تفسير القرآن**. ٢، ٣٦٨؛ والعبكري. **إملاء ما من به الرحمن**. ١، ١١٧

٢ انظر: الطبري. **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**. ٣، ١٥٠؛ الطبري. **الجامع لأحكام القرآن**. ٣، ٣٧٣

٣ الطوسي. **التبيان في تفسير القرآن**. ٢، ٣٦٨

٤ الطبري. **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**. ٣، ١٥٠

مجال للتصويت وهو / ـُ/، وقد يتكرر مثل هذا الأمر في قراءة (ذو قربى)[١] في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾[٢]، والله في كل ذلك أعلم.

نخلص من هذا كله إلى أن لتنوع المصوتات أثراً كبيراً في توجيه القراءات القرآنية صوتياً وتمييز ما كان منها منسجماً مع بيئة النص وسياقه الدلالي، وتحديد ما يشكل وجوده منها عاملاً مهماً في التنسيق بين مقاطع النص وعلاقاتها البنائية والصوتية ببعضها على المستويين اللفظي والتركيبي.

المصادر والمراجع

إبراهيم، أنيس. (١٩٧٣م). في اللهجات العربية. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.

أحمد، مختار عمر. (١٩٨٢م). علم الدلالة. الكويت: مكتبة دار العروبة.

الأزهري، الشيخ أبو منصور محمد بن أحمد. (١٩٩٩م). معاني القراءات. تحقيق: الشيخ أحمد فريد المزيد. بيروت: دار الكتب العلمية.

الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب. (١٩٦١م). المفردات في غريب القرآن. تحقيق: محمد السيد كيلاني. مصر: مطبعة البابي الحلبي.

الآلوسي، أبو الفضل محمود. (د.ت). روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

الأنباري، أبو البركات كمال الدين بن محمد. (١٩٩٨م). نزهة الألباء في طبقات الأدباء. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة: دار الفكر العربي.

الأندلسي، أبو حيان محمد بن يوسف. (١٣٩٨هـ). البحر المحيط. بيروت: دار الفكر.

ابن باذش، أبو جعفر أحمد بن علي. (١٤٠٣هـ). الإقناع في القراءات السبع. تحقيق: عبد الحميد قطامش. دمشق: دار الفكر.

---

١ انظر: الطبري. **الجامع لأحكام القرآن**. ١٤، ٣٣٨؛ الآلوسي. **روح المعاني**. ٢٢، ١٨٥

٢ فاطر: ١٨

البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل. (١٩٨٧م). صحيح البخاري. تحقيق: قاسم الشماع الرفاعي. بيروت: دار القلم.

البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد الشيرازي. (١٩٢٦). أنوار التنزيل وأسرار التأويل تفسير البيضاوي. مطبعة محمد علي صبيح.

الثعالبي، عبد الرحمن بن محمد مخلوف. (د.ت). الجواهر الحسان في تفسير القرآن (تفسير الثعالبي). بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر. (١٩٨٥م). البيان والتبيين. تحقيق: عبد السلام محمد هارون. مطبعة المدني.

ابن الجزري، أبو الخير محمد بن محمد. (٢٠٠٢م). النشر في القراءات العشر. قدم له: الأستاذ علي محمد الضباع. بيروت: دار الكتب العلمية.

ابن جني، أبو الفتح عثمان. (٢٠٠٤م). المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها. تحقيق: علي النجدي ناصيف ود. عبد الحليم النجار ود. عبد الفتاح إسماعيل.

الجوزي، أبو الفرج جمال الدين بن محمد. (١٤٠٧هـ). زاد المسير في علم التفسير. محمد بن عبد الرحمن عبد الله. بيروت: دار الفكر.

الجوهري، إسماعيل بن حماد. (١٩٥٦). تاج اللغة وصحاح العربية. تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار. بيروت: دار العلم للملايين.

الحموي. شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت. (د.ت). معجم البلدان. دار إحياء التراث العربي.

ابن خالويه، الحسين بن أحمد. (١٩٩٩م). الحجة في القراءات السبع. تحقيق: أحمد فريد المزيدي. بيروت: دار الكتب العلمية.

ابن خالويه، مختصر في شواذ القراءات. تحقيق: برجشتراسر. دار الهجرة.

الداني، أبو عمرو عثمان بن سعيد. (١٩٣٠م). التيسير في القراءات السبع. تصحيح: أوتوبرتزل. بيروت: دار الكتب العلمية.

دريد، الشاروط. (٢٠١٢م). مراتب الحركات في العربية، بحث منشور ضمن وقائع المؤتمر الدولي للغة العربية في بيروت.

الدمياطي، أحمد بن محمد. إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر. تحقيق: علي محمد الضباع. القاهرة: نشر عبد الحميد أحمد حنفي.

الرافعي، مصطفى صادق. (ط٨، ١٩٦٥م). إعجاز القرآن والبلاغة النبوية. مصر: المكتبة التجارية الكبرى، ط٨.

الزمخشري، جار الله محمود بن عمر. (١٣٠٨هـ). الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. القاهرة: مطبعة محمد مصطفى، القاهرة.

سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر. (١٩٨٣م). الكتاب. تحقيق: عبد السلام هارون. القاهرة: مكتبة الخانجي.

الشوكاني، محمد بن علي اليماني. (١٣٥٠م). فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير. مصر: مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده.

الطباطبائي، محمد حسين. (١٤٠٢هـ). الميزان في تفسير القرآن تفسير الميزان. قم: مؤسسة النشر الإسلامي.

الطبرسي. أبو علي الفضل بن الحسن. (١٤١٨هـ). تفسير جوامع الجامع. قم: مؤسسة النشر الإسلامي.

الطبرسي، أبو علي الفضل بن الحسن. (١٤١٥هـ). مجمع البيان في تفسير القرآن. تحقيق: لجنة من العلماء والمحققين. بيروت: مؤسسة الأعلمي للممطبوعات.

الطبري، محمد بن جرير. (١٤٠٥هـ). جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري). تحقيق: د. مصطفى مسلم محمد. بيروت: دار الفكر.

الطوسي، أبو جعفر محمد بن الحسين. (١٩٦٣م). التبيان في تفسير القرآن. تحقيق: أحمد العاملي . النجف: المطبعة العلمية.

عبد العال، سالم مكرم. (١٩٦٨م). القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية. مصر: دار المعارف.

العبيدي، رشيد. (٢٠٠٢م). مباحث في علم اللغة واللسانيات. بغداد: دار الشؤون الثقافية.

العسقلاني، شهاب الدين بن حجر. (د.ت). فتح الباري بشرح صحيح البخاري. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي وعبد العزيز الباز. الرياض: مكتبة الرياض الحديثة.

العكبري، أبو البقاء عبد الله بن الحسين. (١٣٩٩هـ). إملاء ما من به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن. بيروت: دار الكتب العلمية.

علوان، عبد الجبار. (٢٠٠٠م). أطروحة دكتوراه الدراسات الصرفية عند ابن جني. جامعة بغداد: كلية الآداب.

العياشي، النضر محمد بن مسعود بن عياش. (د. ت). التفسير العياشي. تحقيق: هاشم الرسولي. طهران: المكتبة العلمية الإسلامية.

الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد. (١٩٥٥م). معاني القرآن. تحقيق: محمد علي النجار. القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة.

القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري. (١٤٠٥هـ). الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي). بيروت: دار إحياء التراث العربي.

القمي، أبو الحسن. (١٤٠٤هـ). تفسير القمي. صححه: طيب الجزائري. النجف: مؤسة دار الكتاب.

الكاشاني، الفيض المولى محمد محسن. (ط٢، ١٤١٦هـ). التفسير الصافي. تحقيق: الشيخ حسين الأعلمي. قم: مؤسسة الهادي.

الكوراني، علي العاملي. (د.ت). تدوين القرآن. قم: مطبعة باقري، دار القرآن.

محمد، إسماعيل إبراهيم. القرآن وإعجازه العلمي. بيروت: دار الفكر العربي.

ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم. (٢٠٠٣م). لسان العرب. القاهرة: دار الحديث.

النحاس، أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل. (ط٢، ١٩٨٥م). إعراب القرآن. تحقيق: زهير غازي زاهد. بيروت: عالم الكتب ومكتبة النهضة العربية.

ياسوف، أحمد. (١٩٩٤م). جماليات المفردة القرآنية. دمشق: دار المكتبي.